

الصورة والتواصل

يمثل التعبير عن طريق الصور او باستخدام الرسوم البيانية شكلا من أشكال التواصل مؤسسا لنظام جديد في الابصار والتخيل خاصة في المجتمعات الحالية التي تسودها الصور. سأحاول من خلال هذه المداخلة تحديد منزلة الصورة من حيث طبيعتها ووظائفها لتجاوز التصور الكلاسيكي الذي يجعل منها مجرد خادم للكلمة مبرزا فعاليتها الكبرى من حيث التفكير والعمل ومؤكدا على ضرورة البحث في شروط استخدامها على افضل وجه .

الاستاذ توفيق الشريف

Image et Communication

Si la communication est perçue comme un échange de message receptr et une emetteur, l'expresion figurative pourrait être considerée non seulement comme une forme de Communication mais aussi comme l'instauration d'un nouvel ordre de visibilité et d'imagination.

Il s'agit dans cette intervention, essentiellement de définir le statut de l'image, de déterminer sa nature et ses fonctions et de dépasser l'iconoclasme traditionnel qui fait de l'image une simple illustration.

الصورة والتواصل

إذا ما عرفنا التواصل بأنه تبادل بلاغ يكون فيه المعنى المذكور مطابقاً للمعنى الذي انتج من أجله، بمعنى إذا اعتبرنا التواصل اعلاماً مرموزاً قابلاً للنقل داخل نسق مكوّن من عناصر تحدد وتحلل وفق نمط معرفي معين، فإنه في الامكان ايضاً ان نعتبر الصور والأشكال والرسوم والخطوط البيانية أدوات تواصل لأنها تنتج عن غائية لتبليغ اعلام معين يمكن فهمه من طرف المستقبل إذ تنتمي الصور الى نظام الخطاب وهي جزء لا يتجزأ من هذا النظام تعتمد في فضاءات عديدة غير ان الخطاب المستعمل داخل الصورة يتميز بصفات خاصة ذلك لان التعبير بالصور يستخدم عند البث كأداة تواصل لكنه عند التقبل قد يقرأ دون إدراك لدلوله المقصود في الاول او قد يدرك منه شيء آخر غير ما يقصده الباث. فما «أن تتحقق الصورة حتى تفلت عن صاحبها فتشرع مرحلة القراءة الاستكشافية الذهنية»⁽¹⁾.

تعرف الصورة عادة بانها الشيء المسطح كالرسوم والصورة الفتوغرافية الخ ولكن هذا التعريف يبتعد عن المعاني الاستمولوجية للألفاظ التي تفيد الصورة. فاللفظ اللاتيني imago يفيد منذ البدء تمثال الاجداد واللفظ اليوناني EIKON مثل اللفظ الألماني Bild يعتمدان لتسمية المثل والرسم الفني، وتحيلنا كل هذه الالفاظ الى فكرة المحاكاة والتماثل بصورة عامة او الى فكرة التكوين والتمذجة، والواقع ان مفهوم

الصور يتضمن فعل التخيل كما يقول الجرجاني «هي القوة التي تنصرف في الصور المحسوسة والمعاني الجزئية المنتزعة منها، وتصرفها منها بالتركيب تارة والتنصيل أخرى مثل إنسان ذي رأسين أو عديم الرأس».

لذلك ينبغي تحديد القوانين والمبادئ المنظمة لهذا التعبير ولتداخل غاياته حتى تضمن صرامته وتتوفر قدرة المستقبل على قراءاته ولا يمكن ان يحصل ذلك الا بالرجوع الى الدراسات التي تبين كيف يؤثر تداخل الغايات في هذا التعبير.

والجدير بالملاحظة ان عدد الدراسات حول الصورة لا يضاهاي بالمرة تراكم البحوث اللغوية المنصبة على النصوص سواء أكانت ألسنية أو سيكولوجية، والحال ان وضع وسائل التواصل لا يبرز هذا التفاوت، فالصور تحيط بنا من كل جهة، منها ما يفرض علينا ومنها ما يقترح وفي كل الحالات تقدم الينا الصور دون ان نجد القدرة على الاختيار، فالنشر يشهد اليوم نموا لا مثيل له من قبل حيث يسود الاعلام بأشكال متنوعة فاتحا عهدا جديدا بإقامة علاقة متينة بين النص والصورة. واختلطت العلامات اللغوية بالرسوم والأشكال وأصبحت القراءة تذهب من الصورة الى النص وتعود من النص الى الصورة بتعميم تقنيات النسخ والتصوير التي اصبحت تساعد على تجديد طرق استعمال المنشور أو المطبوعة في نطاق المجلات والكتب العلمية وغيرها.

وعلى هذا الاساس اصبح من الضروري التساؤل عن دور الصورة في عملية التواصل ومنزلتها في المجتمعات المعاصرة حيث تسود شبكات التواصل بصورة أداتية وتقنية. ذلك أن ما يعبر عنه بـ«ثورة التواصل»⁽²⁾ «أو مجتمع التواصل» يقوم على تزاوج التقنيات الكهربائية ووسائل الاعلام البصرية الذي افضى الى ظهور وضع اجتماعي وثقافي جديد، ولئن استحوذت هذه التقنيات الحديثة على الصورة بعد أن كانت تعتمد النصوص والأصوات فانه لا يمكن تشخيص هذه الظاهرة او تحليلها كمجرد مرحلة من مراحل تاريخ

العلوم والتقنيات او الى مسألة صناعية او اقتصادية . إنما هي ترسم ملامح نظام إبصاري جديد⁽³⁾ يساهم ماديا في احداث طفرة تخيلية ترتبط عضوياً بطفرة عامة للمكان والزمان الثقافيين . وبالتالي فان ظهور صور جديدة . يعكس ظهور خيالي جديد يصنع التوهم والحلم والايطوبيا والحلم والفن⁽⁴⁾ اذ تنتزل الصور في الانتاج المادي والرمزي المميز لنمط عيش المجتمعات قديمة كانت أم حديثة . ففي المجتمعات القديمة يسود الخطاب الشفوي في حين يسود في المجتمعات الحديثة الكتاب والرسالة فيكون الفارق في مدى اتساع مجال التواصل وطبيعة وسائله ، كما تتسم المجتمعات القديمة بمعرفة محلية مباشرة تكون العلاقات بين الاشخاص فيها عديدة تعتمد الكلام بما هو جوهر الاشياء والموجودات كما تكون الصورة فيها اداة الربط والتأثير . أما المجتمعات الحديثة فانها تتسم بمعرفة كونية منتشرة تخضع دوماً لنتائج متزايدة باستمرار تحتل فيها الصورة مكانا هاما وهي مجتمعات مفعمة بالتواصل الى درجة يفقد معها كل اتصال بالاشياء في حد ذاتها⁽⁵⁾ .

والواقع ان الصورة قد نشأت منذ ما قبل التاريخ الاجتماعي ثم واكبته متخذة اشكالا مختلفة ومحددة بذلك تطور الحضارات بكل انواعها . وهي تعكس الحياة الاجتماعية وتمثل تشكلا فعلا يحول الفكر الى قوة فعلية والفعل الى فكرة دقيقة تؤثر في الواقع وتؤسس العلاقات الانسانية . كما توظف الصورة في الفعالية السحرية للقيام بأول سيطرة على المحيط الانساني وابتداع علاقة الانسان بالالاهي . فالأيقونة تسمح بالتواصل مع القوى المنتشرة في فضاء المقدس ، إنها تحدد علاقة الافراد بالسلطة خاصة في المجتمعات التي تكون السلطة فيها منفصلة ومقدسة بمعنى مؤسسة لدين سياسي .

يقول هامان في هذا المعنى « لا تنطق الحواس والأهواء الا بالصورة ، وهي لا تسمع الا بالصور ذلك لان كنز المعرفة باكماله وكنز السعادة البشرية يكمن في الصور . فقد كان العصر الذهبي تكلمت فيه الانسانية بلغتها الأم وهي الشعر الذي سبق النثر مثل فنّ البستنة الذي سبق

الفلاحة وفنّ الرّسم الذي سبق الخط والانشاء الذي سبق الخطابة والمجاز الذي سبق الاستدلال والتبادل الحرّ الذي سبق التجارة⁽⁶⁾. لكن وقع الخط من شأن الصورة داخل ظاهرة عامة تمثلت في الخط من شأن الخيالي لأنّه اعتبر دوما مرادفا للوهم والخرافة وكأنّه في تناقض تام مع الواقع، تناقض أفرزته النزعة المعادية للصور التي سادت الفكر الغربي منذ أفلاطون وأرسطو مروراً بديكارت وتواصلت الى القرن التاسع مع الفلسفة الوضعية⁽⁷⁾.

وتشهد الصورة اليوم وضعا يتميز بالمفارقات تتكاثر فيه من جهة فرض استهلاك الصور ومحوّ من شأنها من جهة اخرى رغم ما يبدو في الظاهر اذ هي لا تعدو أن تكون في الغالب مجرد توضيح او على أفضل وجه من نوافل الكلمة، وبالتالي فان منزلة الصور تقام من جهة على خصوصيتها ونقاط القوة فيها ومن جهة اخرى على خطورتها ونقاط الضعف التي تشوبها.

لقد أصبح من المعلوم ان تحليل البحث العلمي في مجالات الاجتماع والتاريخ وفلسفة العلوم عموما تتطلب اكثر من عملية وصف لطرق التنظير والاستدلال اللغوية منها والذهنية، واذا كان من الممكن وصف العلم بما هو شط مميز من النشاط فذلك لا يعني ان القول بان اهم قسم في العمل العلمي يفترض الانتاج الاجتماعي للتمثلات البصريّة⁽⁸⁾.

لذلك عرف استعمال الوسائل التوضيحية الابصارية مزايده ملحوظة في الكتب التعليمية في العشرينات الاخيرة حيث اصبح الاعلام المرجعي مثلاً يشير الى عدد الصفحات وعدد الرسوم او اللوحات بصورة متكافئة. وقد يصل الامر في تعليم بعض المواد كالعلوم الفيزيائية او الطبيعية الى تقلص نسبة النصوص في المساحة المطبوعة التي اصبحت لا تتجاوز 40٪ حسب بعض الاحصاءات. فقد اعتاد المدرسون في جميع المستويات على استعمال الرسوم الثابتة او ما يسمى بالصور الجديدة، كمواضيع رياضية وضعتها الاعلامية بكيفية تقنية

او تقانيّة ترتجل وتبني خلال الحديث او عند الاستدلال او التفسير يتّكىء عليها الفكر فيتكامل عندها الخطاب والرسم في علاقة ديناميكية توضح مقاصد المخاطب للمتقبل .

والخطّ البياني بما هو صورة يملك خصائص أداة ضرورية في الادراك البصري يحوصل جملة من المعطيات في تصور تأليفي إجمالي بينما لا يملك الخطاب العادي الا التحليل الخطي . لذلك فان الخط البياني يسمح بتشخيص البنى والعلاقات في التقييم فاتحا الحوار مع مختلف المؤسسات التعليمية والاجتماعية⁽¹⁰⁾ فالتمثل البصري يكون الادوات الملموسة العينية تعرض عن طريقها الموضوعات الجديدة وتنقد داخل سياق البحث فلا يقف توضيح النصوص العلمية بالرسوم والصور ففي العديد من مجالات العلم المعاصر كمجال علم الفلك الاشعاعي ومجال المجهرية الكهربائية يوجد تسلسل داخلي لخصائص الموضوعات وتملك الادوات استعدادات وحساسيات رسومية لاستشفاف الموضوع بكيفية تقنية وعرضه على الملاحظين⁽¹¹⁾ .

كما يعتمد هذا العرض في الكيمياء لتقديم الذرة في شكلها الهندسي او تقديم تجربة بصورة بيانية اتفق عليها بحيث يقوم الخط البياني بوظيفة لغة مرموزة تعبر عن افكار وتجعلها قابلة للتواصل . فالرسم وسيط يربط بين صياغة المفهوم المجرد والصورة الذهنية لهذا المفهوم . فيكون دوره ممثلا لدور الاستعارة او التناسب في الخطاب اللغوي⁽¹²⁾ .

ونجد هذا الاستعمال كذلك في الكتابة الهزلية والصحافة الكاريكاتورية التي توظفه للنقد والتشهير في أدب الاطفال لاثارة التخيل والتفكير لديهم . وفي كل هذه الالوان تعتمد الاشكال لتبليغ رسالة تأليفية غنيّة ومعقدة توضع على ذمة القارئ فتكون انفعالاته وردوده متنوعة ومتناقضة احيانا لهذا السبب يهيم الأطفال بالصور ويستمتعون بها .

ولذلك يولي أصحاب هذا الاستعمال عناية كبرى لمعرفة ما إذا كان الإدراك الحاصل بهذه الأدوات قادرا على توفير معرفة مرضية أم لا. وهل بروز الاكتشافات التوثيقية في شكل حوادث مصطنعة يكفي لتفسير الظواهر الموضوعية حينما يتمثلها في سماتها الايقنوغرافية وفي اصطلاحات اجتماعية وفنية.

وقد يدافع العديد من اباحين ببلاغة على « الفكري البصري » جامعين بين علوم الابصار والسمع وتاريخ التمثلات⁽¹³⁾ وكأن الحلقات التقليدية لم تعد تكفي إن لم نقل تصلح في التدريس والفهم وفي التواصل والفعل. ويرز أنصار هذا التعبير منزلة الرسوم البيانية وفضل الصور في التمكن من معاينة الظواهر وإبصارها باعتبارد مرادفا لتسمية الاشياء خاصة تلك التي لم تشاهد قط. فضلا عن أن الصور تيسر الفهم وتولد التعبير التلقائي والتألفي الحر بما هي محفزات تخدم شكل المعرفة ومضمونها. والصورة رغم بساطتها الظاهرية وتجليها الناصع تفيض دلالة لأنها لا تنحصر في معنى واحد ولا تنقيد بآشارة واحدة إنما هي الايحات والايشارات المثيرة لقراءات عديدة، وقد تضاهي أبسط الصور أحيانا أعماق التحاليل التي يبقى المتكلم أمامها عاجزا عن الفهم في حين انه يشعر بالقدرة على تأويل الصور رغم افتقاره لمعرفة ضرورية لاستقراءها.

لكن لا يكفي الاعتراف بقيمة الصور والرسوم في تنمية النشاط الذهني من حيث الاختيار والبناء، اذ ينبغي وضع قراءة هذه الصور في خدمة غرض محدد. وإذا كانت الفعالية التعليمية متوفرة فإن الوظائف المنتظرة للمعطيات الشكلية وتحققها غير متوفرة دوما. فدور اللون مثلا لا يتحدى في وضعه البحث الجمالي ولا يبلغ الغاية التعليمية التي تنسب اليه. وقد يخفي الميل الى استخدام الرسوم عدم القدرة على تذليل الصعوبات عند التحليل والتبليغ فيعوض التفسير الحقيقي باحتزال تبسيطي ساذج يصل أحيانا الى درجة التشويه. لذلك ينبغي أولا وقبل اتمام أي رسم عيسبي ان تحدد الغاية المرجوة : الاعلام والتبليغ ام

الافهام والعمل على ترسيخ المعلومات ولهذا تنادي الدراسات النفسية
والبداعوجية بضرورة انتقاء اهم سمات الدال الا يقوئى حتى يمكن
القارئ من تحديد الدال البصري⁽¹⁴⁾ وضمه الى ما يسمى بالمعنى . ان
انتاج الرسوم وقراءتها في حاجة الى اكتساب كفاءات مميزة حتى لا تزيغ
عن هدفها اذ يمكن ان تستخدم نفس الصورة لأغراض وإيديولوجيات
تربوية او تعليمية متناقضة فالمشكل الاساسي يكمن في تجاهل مفكف الرموز
أو نسيانه، ذلك ان نفس الصورة كما يقول رولان بارط تعوض بطريقة تختلف
باختلاف النص او الاطار المرجحي الذي يصاحبها الى درجة احداث معاني تكون
احيانا متناقضة⁽¹⁵⁾.

بحيث يتمثل شرط فهم أية رسالة في اكتساب سابق للاصطلاح
او الرمز المعتمد بمعنى في حدق مسبق للرسالة المزمع تبليغها مع احترام
الحتميات الثقافية والاجتماعية المختلفة اذ ان الصورة تلتقي بالفرد وهو
حامل لمنظومة من القيم والمشاعر والتمثلات الملازمة لحضارة خاصة .
وبالتالي فان ادراك ما يبدو في الظاهر الا يكون أيسر ولا أكثر واقعية من قراءة
النص اللغوي، ذلك لأن التمثل في هذه الحالة لا يحاكي الواقع كما لو كان صورة
لمرآة، إنه الفضاء الذي تسجل فيه الرغبة والمقول لتغذية التخيل او الاستهواء
الذي ينخرط وينمو ضمن الدوافع النفسية المختلفة.

والواقع أن فهم الصورة يتطلب ما يتطلده فهم اللغة المنطوقة أو
المكتوبة من عمليات داخلية⁽¹⁶⁾ تقوم بالربط بين العناصر المؤلفة لها في
نحو يشابه نحو الجمل ومن عمليات خارجية تسمح بتحديد مرجعي
كأن يكون الشكل مرجعا لهذا الموضوع ثم عمليات تتعلق بضغوط
الدال ولوازم تحقيقه المادّي .

لكن تختلف مقتضيات التمثل الصوري عن مقتضيات التمثل
اللغوي من عدة جوانب :
- لا يمكن للصورة ان تكون المرجع في حد ذاتها ، على عكس اللغة التي
تحمل مرجعها في ذاتها .

- إن التمثلات الصورية تقدم في دال واحد جملة من الروابط المكانية فتتجاوز قدرة الخطاب في تبليغ المعاني لكن لا يعني ذلك عدم وجود استدلالات رسومية او خطية تساوي او تفوق ثراء وصعوبة استدلالات التفكير الرياضي والمنطقي .

- تفترض هذه التمثلات اختيارات دقيقة لعناصر تمثلها والخضوع الى نمط معين .

وبالتالي فان سمات هذين التمثلين الصوري واللغوي (أو القولين) تميز بين نمطين مختلفين لكنها متكاملان .

وخلاصة القول إن التعبير عن طريق الصور والرسوم البيانية ظاهرة حضارية لا نملك سوى القدرة على معاينتها والتحري من جهة من مزاياه بحكم وجود العوائق التي ترتبط بالخوافز وبلاطر التأويلية لدى الباث والمتقبل ومن جهة اخرى التحري ايضا من نزعة الخط من شأن الصورة او محاربة تلك الظاهرة التي سادت تاريخ الفكر الفلسفي واللاهوتي .

فالصور تحمل معاني وفعاليات إجرائية كبرى من حيث الانتاج والتبليغ والحزن لكنها تحدث في الآن نفسه ما يسمى «برهائن او سجناء شبكية العين» les séquestrés de la rétine⁽¹⁷⁾ .

فمنزلة الصورة تختلف باختلاف وظائفها وكيفية استعمالها فعيها او فضلها لا يكمن في حد ذاتها فقد تكون حاجبة للواقع او كاشفة له . وعليه ينبغي التمييز عند الحديث عن التعبير بالصور بين ظاهرة الانبهار بقيمته وبين الرغبة الحقيقية في التواصل الذي يحملها هذا التعبير المنتشر اليوم بسرعة مذهلة في العديد من الكتابات العلمية وغيرها .

ولئن بقيت الصورة خادمة للكلمة لا ترتقي الى مرتبتها فإن في البحث عن شروط استعمالها يكمن شرط نجاحها رغم نقد خصومها وبذلك يمكن ان تتحول الى تواصل يؤدي دورا هاما في تنمية المعارف وتكوين الحس الاخلاقي والجمالي .

الأستاذ توفيق الشريف

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

تونس

NOTES

- (1) Geneviève Jacquinot. « Pas sage comme une image ou l'utilisation des images en Pédagogie » article ni Bulletin de psychologie n° 386. XLI 1987-1988 Juin-Août 1988. 13-16 p 609.
- (2) Georges Balandier, Images, Images, Images article in cahiers internationaux de sociologie, Vol L XXXII, 1987 p. 5.
- (3) Alain Renaud, Nouvelles images, nouvelle culture, vers « un imaginaire numérique » (ou il faut imaginer un démiurge heureux) article : Ibid. p. 125.
- (4) G. Durand : L'imagination symbolique P.V.F. Paris
- (5) Michel Serres. Les cinq sens Paris Grasset 1985 cité par G. Ballaudier. Ibid p. 8.
- (6) J. C. Hamann : « Le nuage du nord » Esthétique dans une voix cité P. Kaufman in article Encyclopedia Universalis Tome 8. article imaginaire, Imagination.
- (7) G. Durand : Les structure anthropologiques de l'imaginaire Paris Dunod 1984.
- (8) Michel Lynch, Horizons pratiques et artistiques de l'observation scientifique article in Bulletin de psychologie n° 386 p. 571.
- (9) P. Arnaud. Formes et fonctions des éléments figuratifs dans la littérature didactique en chimie Ibid p. 577
- (10) Francesco Tonucci. Témoignage d'un chercheur, article in Bulletin de psychologie Ibid p. 595.
- (11) M. Lynch, Horizons pratiques et artistiques Ibid p. 571.
- (12) P. Arnaud, formes et fonctions des éléments figuratifs dans la littérature didactique en chimie Ibid p. 577
- (13) G. Deleuze, Cinéma J. L'image mouvement, Paris. Les Editions de minuit.

(14) G. Jacquinet Ibid p. 609

(15) R. Burthus, « Rhétorique de l'image » communication 4-40-52-1964.

(16) François Bresson cité par G. Jacquinet Ibid p. 603

(17) Entretien avec Pierre Schaeffer, Le Monde 30-31 mars 1986